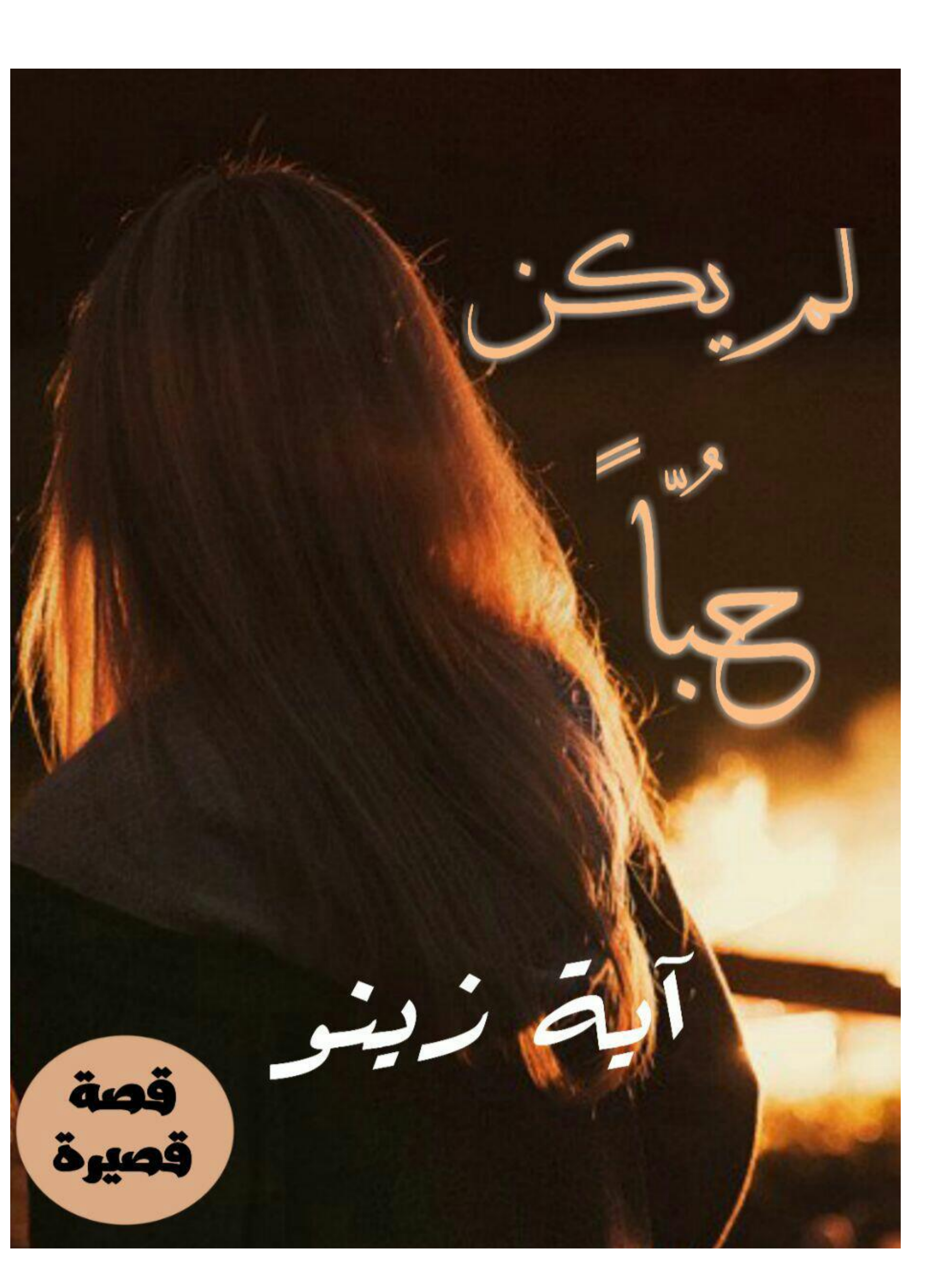

لم يكن
حباً
آية زينو
قصة
قصيرة

تمّ تصميم الغلافين الأمامي والخلفي من خلال :

https://www.canva.com

إهداء : إلى كلّ فتاة وقعتْ في شِباكِ الحُبّ

إلى التي لم تقعْ بَعدْ ..

9 / 11 / 2009 * دمشق – سوريا *

●●●●●●●●●●●●●●●

" أكانَ مُحتّماً عليَّ أن أموتَ مرّتين، مرّةً في الحياة ومرّةً أخرى عند الموت، ثمّ إنّ لا فرقَ بيني وبين الأموات الآن، بيدَ أنّ الأموات يرقدون بسلام؛ أمّا أنا فأتعذّبُ في كلّ وقتٍ وفي كلّ ساعة حين أُصبحُ وحين أُمسي، أموتُ ببُطءٍ شديد على قيد الحياة ..

آهٌ ! ليتَنا لم نذهب في ذلك المساء إلى بيتِ عمّتي، ليت أبي لم يقبل دعوتَها على العشاء، ليت الذي كان لم يكون، وإن كان لا بُدّ من وقوع هذا الحادث المأساويّ، فليت والدايَ أخذاني معهما ..

أعوذُ بالله من الشّيطان الرجيم، ماذا أهذي ؟ إنّه قضاءُ الله وقدره، ولا اعتراض على حُكمكَ يا ربّ، هكذا قال لي جدّي أن نحمدَ الله في السّراء والضّراء، وعندما أتذكّر ما قاله؛ ينشرحُ صدري وأشعرُ بالارتياح، حمدٌ لكَ ربي على كلّ حال .

قد مضى أربعين يوما على وفاتهم وصوّرتهما ما زالت تُطاردُ ذاكرتي، ورائحتهما ما برحت عالقة بأنفاسي، والذّكريات التي خلّفاها ورائهما تُؤلمُ قلبي بشدّة ..

جدّي وجدّتي يحاولان جاهدين بثَّ الحياة فيَّ من جديد، لكن

عبثاً ! البارحة قال لي جدّي : كُفّي عن الانتحاب يا ابنتي، أخشى أن تبيضَّ عينيكِ لفرطِ ما ذرفتِ من دموع، واخلعي عنكِ الأسود الذي ترتديه ولا تُعذّبي والديكِ في قبرهما، لكنّه لا يعلم أنّ قلبي قد ابيضّت عيناه مُذّ فارقاني، وأنّني حتى لو خلعتُ الثياب السوداء، ما الفائدة ؟ إذا كان قلبي في حدادٍ دائم على روحِ أبي وأمّي .

تساقطتْ أوراقُ روحي وهي في ربيعِ العُمر !

تركتُماني في منتصف الطريق ورحلتُما ..

ما أحوَجني إليكما الآن .. ! "

* كتبتْ سَرى *

سمعتْ صوتَ طرقٍ على باب غرفتها، عدّلت وضعيّة جلوسها، وأخفت المُذكِّرة التي كانت تكتبُ عليها، تحت الوسادة، ومسحت دمعة سقطت سهواً على خدّها :

- تفضّل جدّي بالدخول.

- هيّا، العشاء أصبح جاهزاً، جدّتُكِ أعدّت فطائر الجُبنة لأجلكِ.

- ليست لديّ أدنى رغبة في الأكل، اذهب أنتَ وكُلْ مع جدتي.

- لا رغبة عندي في الأكل، أو الخروج من المنزل أو مشاهدة التلفاز أو حتّى الجلوس والحديث معنا، يكفي يا صغيرتي، حرامٌ عليكِ، انظري للحالة التي أنتِ فيها.

ازدردت ريقها ومنعت دمعاً من الهطول :

- حسناً، اذهب وسألحقُ بك.

قال بحزم :

- لا يدي في يدكِ.

تأكلُ هذه الأيام لأجل أن تقوى على المُضي قدُماً في الحياة، والذهاب إلى المدرسة أيضاً، فلا شيء يفتحُ شهيّتها للأكل، ولا حتّى للحياة !

عندما فرغوا من الأكل، همّت سرى بجمع الصحون لغسلها، لكن جدّتها استوقفتها :

- اتركيها من يديكِ واذهبي إلى النوم عزيزتي، أنا سأقومُ بجليها.

- دعيني أساعدك أوّلاً، بعدها أخلدُ إلى النوم.

- نسيتِ أنّ غداً هو أوّلُ يوم لكِ في المدرسة.

- اسمعي من جدّتك يا سرى، يجب أن تستيقظي صباحاً نشيطة يا نحلتي.

ضحكةٌ بالكادِ سُمع صوتها :

- أمرُكما.

قبّلتْهما، واتجهت إلى غرفتها ..

****

10 / 11 / 2009 * الساعة السابعة بتوقيت الشّمس *

••••••••••••••••

تسلّلت خصلات الشّمس الذهبيّة عبر النافذة الزجاجيّة المغلقة، لكن الستائر الورديّة المُسدلّة، اعترضت طريقها ومنعتها من الدخول، رنّ المنبّه مراراً إلى أن استيقظت سَرى أخيراً، نهضت من فراشها الوثير بتثاقل وراحت تستعدّ للذهاب إلى المدرسة.

قالت الجدّة مُطَمئِنة :

- لا تقلقي يا حبيبتي، ستتأقلمي مع صديقاتك الجدُد بمرورِ الأيّام.

- آملُ ذلك !

- حفظكِ الله يا ابنتي.

طبعتْ قُبلة على يدها :

- أطال اللهُ في عمركِ.

****

وقفت ببابِ المدرسة هُنيهة وأجالت بصرها في أرجاء المكان ثمّ دخلت بخطواتٍ مُضطربة، ومضت تمشي بين الطالبات وهي تنظرُ إليهنّ خُلسةً بطرفِ عينها، قُرع الجرس، فاصطفّت الطالبات في طوابير واتّخذت سرى مكانها بينهنّ ألقين تحيّة العلم المدرسيّة بعدها دخل كلّ طابور إلى صفّه، خرجت سَرى عن الطابور وتوّجهت إلى غرفة المدير فأرسل الناظرة معها لتُرشدها إلى صفّها الجديد.

كانت معلّمةُ الرّياضيات مُنهمكة في شرحِ الدّرس، إلى أن جاءت الناظرة وقطعته لتُعرّفهن على الطالبة الجديدة :

- إنّها صديقتكنّ سرى، سترافقكنّ طيلة العام الدراسيّ، أتمّنى أن تَسعدنْ في صُحبتها !

قالت المعلّمة مُرحّبة :

- أهلاً وسهلاً يا سرى، تفضلّي بالجلوس في مقعدك.

حيّينها الطالبات وهنّ يُمعنّ النّظر فيها، جلست في مقعدها حذو النافذة في ارتباك، واستمعت لشرحِ المُعلّمة في اهتمام ..

****

قُرِعَ الجرس مُعلناً وقت الاستراحة، تنفّست الصّعداء، تمشي السّاعة مثل السُلحفاة هذا الصباح أو هكذا خُيّل إلى سرى، تُريدُ الخروج واستنشاق الهواء النّظيف، هذا إن عثرت عليه فقد شعرت بالاختناق في هذه المدرسة .

" لو أنّ أبي وأمي ما زالا على قيدِ الحياة، لما اضطررتُ لمغادرة مدرستي القديمة التي أُحبّها والمجيء إلى هنا "

قالت في قَرارةِ نفسها بمرارة، ثمّ وثبت على رُكبتيها ونزلت إلى الباحة .

كلّ طالبة رفقة صديقاتها، يتقاسمنَ مع بعض الأكل ويتجاذبن أطراف الحديث؛ أمّا سرى فكانت وحدها تمشي بينهنّ .

ظنّت بذهابها إلى المدرسة تردمُ الهُوّة التي خلّفاها والديها داخلها وتنسى .. لكن ذلك لم يزدها إلا انغماساً في الذّاكرة التي ودّت لو تهربُ منها .

على حين غرّة انبلجت أمامها فتاةً بدينة سمراء، وابتسامة عريضة اعتلت وجهها :

- مرحباً، أراكِ تمشين بمفردك ؟

- في الحقيقة أنا طالبة جديدة هنا في المدرسة، ولم أكوّن صداقات بَعد.

- هل تقبلين صداقتي إذاً ؟

الفرحة غمرت قلبها :

- يُسعدُني ذلك.

دنت منها وصافحتها بحرارة :

- اسمي أريج في الشعبة الثالثة.

- وأنا سرى في الشعبة رقم خمسة.

- سُرِرتُ بمعرفتك.

- وأنا كذلك.

بعد عودتها من المدرسة أخبرت جدّيها عن صديقتها أريج، فسَعِدا كثيراً، وكلاهما أملاُ في أن تعود إلى حياتِها وتحياها من جديد ..

****

11 / 11 / 2009 * الثانية عشرة ظهراً – في الصفّ *

••••••••••••••••

وضعنَ التلميذات كُتُب اللّغة العربيّة أمامهنّ على المقاعد بانتظار مجيء المعلّم، وبعد ثلاث دقائق، أطلّ بوجهه الأسمر من خلفِ الباب، كما طلوع البَدر في وسطِ السّماء الكالحة، كان ذو جسدٍ ضخم وكتفين عريضين ولحية كثّة وشعرٍ أشعث، وابتسامته الواسعة تَكشِفُ عن لؤلؤٍ مكنونٍ خلفها .

- السّلامُ عليكم.

وقفن مشدودات الظّهر :

- وعليكم السّلام ورحمةُ الله وبركاته.

- تفضلنَ بالجلوس.

جميع الطالبات في المدرسة يَكنُنَّ الاحترام وربّما الحُبّ للأستاذ اسحاق لأنّه يعاملهن بلُطف وطيبة ويبادلهن الاحترام كذلك ويعتبرُهنّ كـأخواته ليس طالباته فحسب، هكذا كان يقولُ دائما .

همّ يتفحّصُ الكتاب الذي في يده لكن حانت منه التفاتةً نحو نافذة الصفّ الكبيرة وإذ بعينيه تصطدم بعينيّ سرى، سرعان ما أشاحت بوجهها بعيداً وتصاعدت الدّماء إلى رأسها فحال وجهها لأحمرٍ قاتم .

- لدينا طالبة جديدة.

قال وهو يرمقُها بطرفِ عينه.

رفعت رأسها وعينيها تنظران إلى الأسفل.

- ما اسمكِ ؟

أجابت بـتلعثُم :

- اسمي سرى.

- أهلاً وسهلاً بكِ في صفّنا.

أومأت برأسها وابتسامة هادئة لم تكادُ تظهرعلى وجهها حتّى اختفت .

****

12 / 11 / 2009 * الساعة الثانية بعد منتصف الليل *

•••••••••••••••••

حتّى هذه الساعة وسرى ما زالت مستيقظة، وصورة الأستاذ اسحاق ما برحت عن ذاكرتها منذ أن رأته، لماذا وجدتْ نفسها تُفكّر فيه ؟ اجتاحتها أحاسيساً لم تُخالجها من قبل، حاولت أن تُرشي النّوم بشتّى الطرائق، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل ! استقامت وتناولت مذكّرتها من الدّرج، شعرت برغبةٍ جامحةٍ للكتابة، وراحت الكلمات تنهمرُ على الورقة ..

" كم بدا وسيماً وطيّباً، سبحان الله على حُسنه وبهائِه !

عندما هلَّ علينا مثل عيد، صُعقتُ وارتعدت أوصالي، وقلبي طفق يضخُّ الدّماء مدراراً، كما نهرٍ مُتدّفق ولمّا تلاقت عيوننا؛ لمعتْ بسرعة كالبرق !

عن مَنْ أكتب ؟ استغفرُ الله "

مزّقت الورقة التي كتبت عليها ورمتها في سلّة المهملات .

****

استفاقت باكراً جداً رغم أنّها لم تنم حتى ساعة متأخرة من الليل، بنشاطٍ وهمّة لم تعهدهما منذ وفاة والديها، هناك ساعةً بَعد، ويحين موعد المدرسة، خطرت في بالها فكرة ..
لماذا لا تُعدُّ الفَطور لجدّيها وتقوم بإيقاذهما ؟ وبالفعل هذا ما فعلته ..
طرقت على باب غرفة جدّيها ونادتهما بصوتٍ خفيض :
- جديّ جدّتي افيقا.
جاء صوتُ جدّتها من الداخل :
- ادخلي يا صغيرتي.
- صباحُ الخير، ألا تُريدان تناول الفَطور ؟ حضّرتُه للتوّ.
حدّقا بها مستغربَين !
- هيّا قوما سيبردُ الشّاي.
ذُهلا للوهلةِ الأولى عند دخولهما غرفة المعيشة، ورؤيتهما لسفرة الفطور وقد بدت في مُنتهى الترتيب والتّنسيق والطّعام اللذيذ يفترشُها .
- أنتِ من أعدتِ هذا حقّاً ؟!
- هاها، نعم يا جدي، أوه ! صوتُ بوقِ باصِ المدرسة، أراكما لاحقاً، وداعاً.
قبّلَتْهما وذهبتْ ..
- لحظةٌ ! وأنتِ ألن تُشاركينا الفطور ؟ يا سرى.

- حفِظَها الله ! أتمنّى أن تكون قد خرجت من الحالة المُسيطرة عليها مُنذُ مُدّة.

- على ما يبدو أنّ جُرحَها بدأ يندمل.

- إن شاء الله يا أمّ سليمان.

****

بدت المدرسة لسرى أجمل من البارحة والطالبات أقلّ تعجرف، اعتراها ذلك الشعور مُجدّداً عندما دخل الأستاذ إلى الصفّ.

- صباحُ الخير.

قُلنَ بصوتٍ واحد :

- صباح النّور.

- كيف حالكنّ اليوم ؟

- الحمدُ لله.

- حسناً، قبل البدء بـدرسنا الجديد أُريد أن أُحيطكنّ علماً، يوم غدّ سيكون الاختبار الذي سبقَ وتحدّثنا عنه، وكلّ الدّروس التي قمتُ بشرحها خلال العشرة أيّام الفائتة، قوموا بدراستها، ولا تقلقنّ، الأسئلة التي سأضعها لن تكون صعبة إن شاء الله .

دُهشَتْ سرى عندما سمعته يتفوّه بهذا الكلام، كيف ستُذاكر وهي لم تكن معهنّ منذُ بداية العام الدراسيّ ؟ ولم تأخذ الدروس التي يقول عنها الأستاذ، " يا الله ما عساي أفعل لا يمكنني أن أتحدّث إليه، وهو ألا يراني " قطعَ حبلُ تفكيرها :

- هل هناك أيُّ سؤال ؟

هيّا قولي له يا سرى ولا تخجلي، هيّا بسرعة !

تردّدتْ .. ثمّ نطقت أخيراً :

- أستاذ، أنا لدي سؤال.

- تفضّلي يا سرى.

- كما تعلم جئتُ البارحة إلى هنا ولم أستطع الدّوام معكم منذ بداية العام الدراسيّ، لهذا لا يمكنني المُذاكرة، فلا أفهم من الدّروس شيئا !

قال بعد بُرهة من الصمت :

- طيِّب، سأقوم بتأجيل المذاكرة إلى الأسبوع القادم أمّا بالنسبة للدروس التي لم تأخذيها، فأتي إلى غرفة المعلّمين في وقت الاستراحة لكي اشرحها لكِ.

امتقعت وجوه الطالبات ورمقنَ سرى بنظراتٍ استهجان

" سيُؤخّر المذاكرة لأجل هذه البلهاء ! "

- التزمنَ الصّمت وانتبهنّ للدّرس.

****

13 / 11 / 2009 * في غرفة المُعلّمين *

•••••••••••••••••

تحلّقا حول الطّاولة، فتح الأستاذ اسحاق الكتاب مُطرِقاً :

- سرى أودُّ أن تنتبهي جيّداً للشّرح، وإن حدث وصادفتِ جملة أو قاعدة شرحتها ولم تفهميها، قولي لي لأُعيدَ التّوضيح، ولا تخجلي من السؤال ! سأحاول قدرَ المُستطاع تعويض ما فاتكِ من دروس.

- إن شاء الله تعالى.

- فلنبدأ إذاً، بسم الله الرحمن الرحيم.

وشرعَ يُعلّمُها، وهي تُنصتُ لكلِّ حرفِ ينطقُ به رغم أصوات الجَلبة الآتية من الباحة، أو لربّما أطربَها صوتُه الشَجيّ !

عندما انتهى الدّرس، شكرتهُ وقالت مُعتذِرة :

- آسفةٌ جدّا يا أستاذ ! لأنّني تسببتُ في تأجيل المذاكرة لصديقاتي.

باغتهُ اعتذارها هذا، حدّق بها ثمّ أردف :

- ولمَ تتأسّفي ؟ على العكس أنا مسرورٌ منكِ جدّاً ! لأنّكِ تودّين فهم الدروس التي فاتتكِ ولم تقومي بإهمالها.

أحقّا هو مسرورٌ منها ؟ يا لسعادتها !

****

14 / 11 / 2009 * مساءً في شرفة المنزل *

....

كانت تُحادِثُ جارها القمر تارةً وتَعِدُّ النّجوم تارةً أخرى، ونسماتٌ باردة تُعانقُ خدّيها، منذُ زمن لم تزور السّعادة قلبها، كان شعورٌ غريبٌ ينتابُها، والمشاعر التي تجتاحها بدت مُبهمة حيث ليس بالإمكان شرحها، كما يشرحُ المعلّم الدّرس، مثل هذه الأحاسيس تمكثُ وتتحكّم فينا، عاجزين عن فهمها !

لكن هناك في الجزء الخفيّ داخلها « رَدْهةُ حُزن » تنغّص على سعادتها، ولماذا الحزن يا سرى ؟

هي نفسها لا تدري ..

****

19 / 11/ 2009 * يوم إعلان نتائج الاختبار *

••••••••••••••••

كانت متحمّسة أشدّ الحماسة، فسيُعلن الأستاذ اسحاق علامات المذاكرة، وفي الوقت نفسه تشعرُ بالقلق، فهي لا تقبل بالدرجة المُتدنيّة، لا لأجل أن تفخر بين صديقاتها ويقلن عنها وقتئذ أنّها « فتاةً مُثابرة » بل هي دائما ما تسعى لـصُنع الأفضل وإحسان عملها وإتقانه مهما كان، كما أنّها لا تُريد أن تخيّب ظنّ الأستاذ فيها فقد تعب معها كثيراً في الأسبوع الماضي .

- انصتنَ إليّ سأُذيعُ درجات الاختبار.

سرى حصلت على « درجة امتياز » أعلى درجة في الصّف.

نظر إليها نظرة افتخار متبسّماً :

- أحسنتِ يا سرى.

تفاجَأنَ الطالبات وأفرغن أفواههن، أيُعقل أن تحصل على درجة عالية ولم يمضِ أسبوع على دوامها هنا في المدرسة !

عندما انتهى الدوام، أقبلت نحوها طالبة مع صديقاتها والشّرر يتطاير من أعينهن :

- يبدو أنّ الأستاذ مهتمٌّ بكِ كثيراً.

تعجّبت من هذا الكلام، وأصاباها العجز عن الردّ عليهنّ !

قطّبت حاجبيها، هزّت برأسها علامة النفيّ وانصرفت عنهنّ.

****

20 / 11 / 2009 * المُهمّة التي وُكّلتْ بها سرى *

•••••••••••••••••

عندما انتهت حِصّة الأستاذ اسحاق قال مُنادياْ سرى :

- سرى، اتبعيني إلى الإدارة أودُّ التحدُّثَ إليكِ.

- نعم ؟

أعاد ما قاله، والطالبات ينظرن في وجوه بعضهنّ البعض، وقد تملكهنّ الفضول لمعرفة سبب استدعاء الأستاذ لسرى ..

جلسَ خلف المكتب وطلب من سرى الجلوس :

- بالتأكيد تتساءلين عن سبب دعوتي لكِ إلى هنا.

- تماماً.

- عزيزتي سرى أريدُ أن أُكلّفَكِ بمهمّة، راجياً بألا تَرفُضيها.

- تفضّل أستاذ.

- أُقيمت في أحدِ المراكز المرموقة، مسابقة لأساتذة اللغة العربيّة وليست للأساتذة على وجهِ التّحديد وإنّما للطّلاب، وشروط المسابقة : أن يختار الأستاذ طالبا أو طالبة من صفّه يكون داهياً في كتابة المقالات، يقومُ بكتابةِ مقالٍ مُميّز ذي موضوعٍ فَذّ، والفائز في المسابقة، سيُطبع مقاله في دور النشر وتُوّزع نسخاً منه على مكتبات المدينة . « لهذا اخترتُكِ أنتِ »

ابتلعت ريقها، والكلمات علقتْ في حنجرتها.

- هل تقبلين هذه المُهمّة يا سرى ؟

صمتتْ برهة :

- بكلّ سرور.

- أنا مُمتنٌ لكِ حقّاً !

استأذنت في الانصراف، لكنّهُ استوقفها :

- أوه نسيتُ، عند نهاية الدّوام سآتي إلى صفّك لأُعطيكِ ورقةً تحوي معلومات عن « كيفيّة كتابة المقال والشروط الواجب توافرها في المقال، إلخ .. »

ابتسمتْ :

- لا داعي يا أستاذ أعرفُ كل هذه التفاصيل، لقد قرأتْها مُسبقاً.

ابتسم بدوره مذهولاً منها :

- حسناً، حظاً موفقّاً إن شاء الله.

مع الأيام اكتشف حذاقةَ سرى وأعجبه شغفها بالتعلّم وتميُّزها عن قريناتها الفتيات وأصبح يتباهى أمامَ زُملائه المعلّمين بأنّها طالبته ..

****

2009 / 11/24 * يوم إعلان أسماء الفائزين بالمسابقة *

•••••••••••••••••

عادت إلى البيت والفرحةُ تغمرُ قلبها، دخلت غرفةَ المعيشة وهي تغنّي وترقص :

- لقد فازت حفيدتكما، فازتْ !

فغرا فاهُهما اندهاشاً :

- حقاً !

اومأت بالإيجاب وقدمّت الجائزة لجدّيها.

- كنتُ على يقين بأنّكِ لن تُخيّبي أملنا فيكِ.

ضمّتها الجدّة إلى صدرها وراحت تُمطرُها بـوابلٍ من القُبل ..

- لن تُصدّقا كم أعجبهم مقالي، موضوعَه وطريقة صياغته، وأشادوا به والجميع صفّق لي.

- يا حبيبة جدّو.

قالت أمّ سليمان وعينيها تلمعان :

- كما عهدُتكِ مجتهدة ومواظبة، حفظكِ الله يا مُهجةَ قلبي، سأريقُ لكِ عصير الرّمان الذي تُحبّيه !

- حقاً ! سأشربُ الإبريقَ كلّه، أقصدُ العصير لا الإبريق هاها .

****

” لهذا اخترتُكِ أنتِ “

ظلّ يتردّدُ صدى هذه الجملة في ذاكرتها ..

- أتُراهُ ؟

- لا لا.

- ولمَ لا ؟

- ربّما !

- ربّما ماذا ؟

- لا أدري.

كانا عقلها وقلبها قد عقدا حواراً، وهي تُصغي لنقاشِهما في صمت، أنّى لها بأن تتخلّص من عراكِهما الذي لا ينتهي ! وفي كلّ مرة تعقِدُ هدنةً بينهما ما تلبث حتّى يخرِقها أحد الطّرفين فيعودا لنزاعهما مُجدّداً، ولا يتفقا على أمر، قلبها يقولُ : « نعم » وعقلها « لا » وهي تتعذّبُ بينهما ! أتُراها تُرضي مَن ؟

” لكن القلب هو الذي ينتصرُ دائماً .. “

****

25 / 11 / 2009 * والصّبحُ إذا تنفّس *

•••••••••••••••••

اخترق صوتُ الأذان جدرانَ الغرفة، فأيقظها من سُباتِها العميق، نهضت من فراشها وذهبت تتوّضأ وتستعدّ للصلاة .

" اللهمّ يا حيٌّ يا قيّوم، ازح الهمّ عن قلبِه وانزل السكينة على صدره، ابعد عنهُ الأذى واحفظه بحفظك يا ربّ "

آمين .

عندما انتهت من الصّلاة وجدتْ نفسها تدعو له، واندهشت ممّا قالته، ماذا دهاكِ يا سرى ؟

هي تطرحُ السؤال ذاته على نفسها أيضا وما من جواب ..

باتت تكرهُ يوم العطلة، وتشتاقُ للمدرسة كثيراً، لأنّها لن ترى الأستاذ اسحاق في العطلة، ولن يقول لها « صباحُ الخير » ولا يمكنها أن تروي ظمأَ قلبها برؤيته .

" شخصاً واحداً فحسبْ كفيلاً بأن يجعلنا نُحبُّ مكاناً وربّما مدينة بأكملها "

على حينِ غرّة سمعت صوتاً يأتي من الداخل :

" كفاكِ كذباً على قلبكِ يا سرى ! تخدعيني طوالَ الوقت، والعشق قد بلغ فيكِ مبلَغه ! الحقيقة أصبحت واضحة وضوحَ

الشّمس بالنسبةِ لي، فبماذا تُفسّرين الارتباك الذي يُصيبك عند رؤيتكِ للأستاذ اسحاق، واضطراب دقّات قلبك، ورائحة الخجل التي تفوحُ منكِ عندما تتحدّثين إليه، ماذا ؟ اعترفي لي على الأقل، لا تخافي لن يسمعَنا أحد ..! "

كانت نفسها هي التي تتكلّم، أمسكتْ بها أخيراً ليس ثمّة مناصّ مُمكن، رفعتْ رايةَ قلبَها واستسلمتْ ..

****

بدأ الحبُّ الذي تَكنّه في قلبها ينمو شيئاً فشيئاً دون أن تدري، في كلّ ليلة ترتقبُ إتيان الصّباح لتذهب إلى المدرسة وتراهُ، فرؤيتَهُ تمنحها الدّفء، وقربَها منه تُشعرُها بالأمان !

أكثرُ الطالبات يلاحظنَ اهتمام الأستاذ اسحاق بسرى ممّا كان يثيرُ بركانَ الغيرة فيهنّ، وهي تشعرُ بسعادةٍ كبيرة فهناك أحداً يهتمُّ بها، وتشغلُ حيّزَ تفكيره، لكن برغم هذا كان الخوفُ يُلازمُها على الدوام، الخوف من أن تستيقظ يوماً ولا تجده، أن يذهبَ هباءً منثوراً، من فِكرةِ أن « لا يعود هناك اسحاق في حياتها » !

تلكَ الفتاة التي لم تعرفْ الحبّ يوماً، تسمعُ صديقاتها يروينَ قصصهنّ الغراميّة فلم تكن تفهم منها شيئاً، ما كانت تريدُ الوقوعَ في الحبّ لكَونها تعتبرُه ذنباً وهي تخافُ الله، فمالها الآن انقلبت رأساً على عقب ؟ وكلّما تابت عن حبِّها آبتْ إليه ..

اليوم فقط عرفت ماهيّة الحبّ ..!

" هناك أشياءٌ نتمّنى لو بقيت مُبهمةً وليتنا لم نتساءل عن معناها ما كُنّا لنفهمها ونتألّم .. "

****

1 / 1 / 2010 * يوم تهدَّمَ بِنيانُ روحَها *

....

كانت شاردة الذّهن تسبحُ في بحرِ خيالها، مسندةً رأسها على نافذة الحافلة التي تقلُّها إلى المدرسة.

نادتها صديقتها أريج :

- ألا تُريدين النزول ؟

تلفّتت حولها :

- وصلنا ! هلُمّي ننزل إذاً.

مكثَنَ الطالبات يرتقبنَ مجيء الأستاذ اسحاق، وسرى قد بلغَ القلقُ فيها مبلَغه، أسئلة وهواجس كثيرة بدأت تتردّد على ذهنها، دقيقةً إثرَ الأخرى، مرّت ربعُ ساعة ولم يأتِ بَعْدْ، شارفت الحِصّة على الانتهاء وما برحتْ تنتظر، ليس من عادتِه أن يتأخّر عن درسِه، لربّما حدث معه أمراً طارئاً جعله يتغيّب عن المدرسة، أيُعقل أنّه مريض ؟ ' يا ربّ تكون العواقب سليمة ' فكّرت في أن تذهب و تسأل عنه في الإدارة وإذ تتفاجأ بالمُدير ينتصبُ أمامهنّ :

- السّلامُ عليكم.

- وعليكم السّلام ورحمةُ الله وبركاته.

- تتساءلون عن عدمِ مجيء الأستاذ، أصحيح ؟

- بالضّبط.

- يؤسفُني إخباركنّ بأنّ الأستاذ اسحاق..

تسارعت نبضاتُ قلبَها واصطكّت أسنانها ببعضهما،' بأنّ ماذا ؟ '

- تركَ المدرسة وسافر إلى خارجِ البلاد بسبب ظروفٍ طارئة حصلت معه.

أطلقت روحَها شهقةً لم يسمعها أحد لفرطِ ما كان تردُّدها عالٍ،

كلّ الذي كانت بحاجةٍ إليه في تلك اللحظة أن يقول لها أحداً :

' ما سمعتيه ما هو إلا كَذِباً '، أو يقول ' استفيقي من حُلُمكِ '

كانت فاقدة الوعي تماماً، استغرقت وقتاً حتّى استوعبت ما قاله المدير..

أين ذهبتَ يا اسحاق وتركتَ سرى ؟ تركتَ الطّفلة التي وهبتكَ حُبّها وحياتها !

حرامٌ أن تموتَ مرةً أُخرى ! كان اللهُ في عونها ..

****

حاولتْ اجترارَ روحها المُتهدِّمة بالقوّة التي بقيتْ في قعرِها، حتى وصلت إلى البيت، ارتمت على سريرها ومضتْ تجهشُ بالبكاء، بعدما تسلّلتْ الحياة إليها، بعدما أعادت ترميمَ روحِها، يأتي هو ويخرّبُ كلّ شيء بذهابه !

كانت تظنُّ بأنّه يحبُّها بسببِ تصرفاتِه معها المختلفة عن تصرّفاته مع بقيّة الطالبات، لكن لو كان كذلك لما سافر وتركها أو على الأقل لأخبرها ووضّح سببَ مغادرته للمدرسة.

في اليوم التالي لم تذهب إلى المدرسة بحُجّةِ مرضِها، وبدآ جديها يلحظان سلوكها الغريب، إذ هي تمتعضُ فجأةً وغدت حسّاسةً زيادةً عن اللزوم، ولا ترغب في فعلِ شيء !

والاكتئاب ينهشُها إرباً إرباً فأضحت هزيلةً لا تقوى على الحركة .. لكن إلى متى ستبقى هكذا ؟

" الحياةُ لا تتوقفُ لأجلِ أحدّ " هل ستُدركُ هذا لاحقاً ؟

****

7 / 1 / 2010 * لا مفرّ من الاعتراف *

••••••••••••••

رفعَ رأسها نحو وجهه فتقابلت عيناهُ بعينيها، لكن سرعانَ ما اخفضتهما، فالحقيقة مكنونةٌ فيهما لهذا تخشى النظر في عينيّ جدّها وإلا كشفَ سرّها ..

- تظنين بأنّني لم ألحظ تبدّلَ حالكِ بهذا الشكل المفاجئ، بثّي لي ما اختلج في صدرك يا ابنتي، قولي ما شئتِ، المُهم ألا تبقي صامتة.

لم تستطعْ كبحَ فرامل دموعِها، فانفجرت باكيةً !

أخذها الجدُّ بين ذراعيه وتركها تبلّله بالدّمع ولم ينبس ببنتِ شفّة حتّى خطفها النوم وهي تبكي، دثّرها بالبِطّانيّة، وحال استيقاظها سيُحادثُها ويفهم منها كل شيء، تكونُ قد هدأتْ قليلا أيضاً .

****

حاولتْ أن تبدو طبيعيّة على العشاء أمام جدّيها، فـأكلت أكثر من حاجتِها وهي تتحاشى النّظر في وجه جدّها، عندما فرغوا من الأكل، قال الجدّ مُخاطباً سرى :

- ارتدي ثيابكِ، سنخرجُ أنا وأنتِ للتنزُّه في الحديقة.

ارتبكتْ وقالت محاولةً الهروب من الحديث الذي سيُفاتحُها به :

- لكن جدّي لديّ واجبٌ مدرسيّ لم أنهيه بَعدْ.

- دعها يا أبا سليمان، اخرجا في يوم العطلة إن شاء الله.

أردف بحزم :

- أنتظرُكِ في الخارج.

****

- هيّا نجلسُ على ذلك المقعد.

- جدّي أشعرُ بالبرد، دعنا نعودُ إلى البيت.

- لماذا تتهرّبين من حديثي ؟ أنا أمُّكِ وأباكِ وأخاكِ، أنا أنتِ يا حبيبتي، ولا أقبل بأن ينخدش ولو حتّى ظفراً من اصبعك، فافصحي عمّا تكتُميه في صدركِ ولا تدعيني أتألّمُ لأجلكِ أكثر.

أيقنت أنّه لا مفرَّ من الاعتراف، تنهّدت وقالت بمرارة :

- أتعلم بماذا أشعرُ الآن يا جدّي ؟

- بماذا يا حبيبتي ؟

-كأنّ رصاصةٌّ تقبعُ في صدري منذ زمن وأخافُ إزالتها، لهذا هي تتركُ حولها شيئاً فشيئاً نُدبات وجروح .. أتدري توجعني بشدّة !

تملّكهُ القلق فجأةً :

- دعيني أنزعها لكِ.

- أخافُ أن تُخطِئَ فَهمي ولا تعرفُ خياطةَ الجُرح.

- ثقي بأنّي سأفهمكِ جيّداً.

لاذت في صمتها هُنيهة :

- حسناً، هل سبقَ أن أحببتَ ؟

سقط قلبُه في صدرِه ! أطرق مُتلعثماً :

- ولمَ تسألي ؟

- اجب عن سؤالي أوّلا لأجيبَ عن سؤالكَ.
- جميعنا نحبُّ يا سرى خلال مراحل حياتنا.
- إنّه لأمرٌ طبيعيٌّ إذاً ؟
- نعم هو كذلك.
- لن تلومَني لو قلتُ لك أنّني... وقعتُ في شِباك الحبّ ؟
دُهِشَ ! حَسِبَها تمزح :
- ماذا ؟
خافت من ردّةِ فعله، فظلّت واجمة ..
- امهليني ريثما استوعبُ الأمر، لم أتّوقع أن تُحبّي يوماً.
- ألا أملكُ قلباً لأحبَّ كما بقيّة الفتيات ؟
- لا أقصدُ هذا، لكنّكِ فتاة عاقلة وواعية لستِ مثلهنّ.
- لو كان خياري لما اخترتُه صدّقني.
- أعلم هذه هي مشكلةُ الحبّ، أتدرين عندما سألتِني في البداية ذلك السؤال، وضعتُ يدي على قلبي.
- لماذا ؟
- خشيتُ عليكِ من الألم الذي ستُقاسيه.
- نعم، الحبّ أضنى قلبي يا جدّي.
- يبدو أنّ الحبّ قد بلغ أشدَّه فيكِ ! قولي إذاً : مَن ومتى حدث ذلك ولماذا ؟
- أستاذي في المدرسة، لا أدري حقّاً متى وأين وكيف، في الحبّ لا يعود للمكان والزّمان أيُّ معنى.

- لكن ما السبب الذي جعلكِ تقعين في حبّ هذا الشخص دونَاً عن سواه ؟

- روحه الأنيقة وخلُقُه، تعامله مع الطالبات باحترام وأدب، المواظبة على تأديةِ صلاته حتى لو كان في خضمِ انشغاله، حبَّه للخير.. وكأنّ جميع الصفات الحَسَنة اجتمعت فيه، هي كذلك بالفعل !

- على الإطلاق، هذا ما يبدو لكِ أنتِ.

- لا أفهم !

- المُحبُّ يرى محبوبَه كأنّهُ ملاكاً لا تشوبُهُ شائبة، خالٍ من أيِّ عَيب، وخلف السّتار هناك تكمنُ الحقيقة، وبينما يكون غارقاً في حبّه، ينسى رفع هذا الستار ليكشفَ عمّا حُجبَ عنه .

تُصغي باهتمام إلى كلِّ كلمةٍ يتفوّهُ بها وهي تومئ برأسها ..

استطرد كلامه :

والفتاة عندما تقع في حبِّ شخصٍ ما تزعمُ بأنّها التقت فارس أحلامها الذي لطالما حلُمت به، وكلّ المُميّزات التي تمنتها في هذا الفارس وجدتها فيهِ بالفعل، هكذا تظُنّ.

- على أيّة حالٍ دعكِ من هذا الهراء، وليكُن تحقيقُ هدفاً سامي في الحياة من أولويّاتكِ.

- أيُّ هراء ؟

- هراء الحبّ.

- وهل الحبّ هراء ؟

- أقصدُ حبَّ المراهقة.

- هل له أنواع أيضاً ؟

- ليس بهذا المعنى، مثلاً الحبّ في سنّ المراهقة يختلف عن الحبّ في مرحلة الرشد.

- كَيف ؟

- سآتيكِ بالكلام.. الفتاة في هذه المرحلة التي لا بُدّ أن تَمُرَّ بها تكون العواطف داخلها مُتأجّجة لهذا تشعرُ برغبةٍ جامحة لإفراغها، فتلجأ إلى الحبّ وللأسف تغدقُه على الشخصِ الخطأ، فنراها تهيمُ غراماً وتخافُ في نفسِ الوقت أن تفقدَ الذي أحبّته، فتعيشُ في قلقٍ دائم، أمّا إذا كان الحبّ من طرفٍ واحد فهذا هو الأصعب.

- لماذا ؟

- لأنّها تُريدُ إقناعَ قلبها بأن الطرف الآخر يُبادلُها نفس المشاعر أيضاً، فالعذاب سيكون أشدُّ وطأةً هنا، فلا تعود الفتاة تُطيقُ العيش، لأنّ الحياة كانت بالنسبةِ إليها هو فلا حياة من بعده، بيدَ أنّ الحياة تمشي، وحين تتخطّى هذا السنّ ستُدركُ حتماً بأنّها ضيّعت سنيناً من حياتِها على حُبٍّ لا أملَ فيه، كما أنّ الحبّ المُلتهب قد نَفِدَ من قلبها فتصبح نادمةً، لكن بعد ماذا ؟ بعد أن انطفأ قلبها مثل شمعة وما عادت هيَ هيَ.

- لكنّني أحببتْ من قلبي.

- حبّ المراهقة حبٌّ طاهرٌ وبريء صحيح، لكنّه ليس عقلانيّاً فالمُراهِقة تنجرُّ وراء مشاعرها ولا يعودُ لعقلها شُغلٌ، فالعاقبة ستكون وخيمة لأنّ حبّها لم يُوجّه في المسارِ الصحيح.

- لكنّه منحني ما كنتُ بحاجةٍ إليه.

- ليس صحيحاً، كنتِ بحاجةٍ إلى الحبّ لتملأي الفراغ داخلك.

- لكنّني لم أبحث عن الحبّ هو الذي بحث عنّي فوجدني بالفعل.

- توهمينَ نفسكِ.

- كان يعاملني معاملةً مختلفة، يوم المسابقة اختارني من بين جميع الطالبات، وذات يوم سمعتُ طالبةً في الصفّ تتحدّث عنّي بالسوء فتعاركتُ معها وجاء بنفسه ودافع عنّي وقام بمُعاقبتِها.

- عزيزتي هو كلّفكِ بهذه المُهمّة لأنّه يعلم في وسعكِ تأديتِها والفوز في المُسابقة، ودافعَ عنكِ لأنّكِ مظلومة لا لأنّه يحبُّك، صدّقيني أيُّ معلّمٍ لو رآكِ لفعلَ ما فعله.

اعترضتْ حلقها غصّةُ حزن وفاض الدّمعُ في عينيها :

- تقصدُ أنّه لا يحبُّني ؟

- يُحبُّكِ لكن ليس كما تعتقدين !

لاحظ الصّمت الذي خيّم عليها فجأة..

- أودُّ أن أُقولَ لكِ كلاماً ضعيهِ حلقةً في أذنكِ.

- حسناً.

- الحبُّ موجودٌ فينا بالفطرة، واللهُ يقول في الآيةِ الكريمة : « يُحبُّهم ويُحبّونَه » فالله هو الذي بدأ بالحبّ وديننا يأمرُنا بالحُبّ، إنّنا نحيا بالحبّ ولولاه لما استمرّت الحياة وكنا قد انقرضنا منذ زَمن، لكن هذا الذي تمرّين به لا يمكن أن يكون حبّاً إنّما عبارة عن نزوةٍ عاطفيّة وتذهب ليس إلا.

- حسناً إذا كنّا نحن المراهقات بحاجةٍ للحُبّ ما الذي يجب أن نفعله لنتجنّب الوقوع في هذه المشكلة ؟

- نستبدله بحبّ المحبوب الأوّل والأخير.

- ومن هو ذا ؟

- الله.

أضاءت .. مثل شجرةِ عيد.

- كيف ؟!

- لا بُدَّ أنّكِ سمعتِ بقصّةِ السيّدة زُليخة مع سيّدنا يوسف ؟

-نعم، عشقته عشقاً شديداً .

- وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من العشق ظَفِرَت بهِ ونالت ما تمنته، لكن عندما ذاقت من شراب الحبّ الحقيقيّ انصرفت عن حبِّ يوسُف وهامت في حبّ الله، لهذا ذلك الحبّ العظيم الذي كانت تكنّه ليوسف وجدت ما هو أعظم منه بكثير.

- ماذا فعل بها حبّ الله حتّى خمدت نارُ عشقها لسيدنا يوسف فجأة ؟ إنّها لقصّة عجيبة بالفعل !

- ذلك هو السرّ..

- أما لديكَ المزيد لتقوله لي.

- أراكِ مُتعطّشة للمزيد، بلى اسمعي :

الشّخص الذي نهواه ليس بالضرورة أن نحصل عليه، فمثلاً قيس بن المُلوح لم يحصل على ليلاه، عنترة وعبلة كذلك

الأمر، جميل بثينة لُقب هكذا لفرطِ حبّه وآخر الأمر لم ينالْ بُثينة وكثيرين غيرهم أحبّوا ولم ينالوا ما أرادوه ..

عزيزتي لكلِّ منّا هناك روحاً تُكمّلُ روحه الناقصة، لا ندري أين هي، لكنّنا سنلتقي بها مهما كان في يومٍ من الأيّام .. فلا جدوى من هكذا حبّ !

وأخيراً.. هناك آيتان في القرآنِ الكريم يقولان :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ »

فاختاري يا سرى أيُّهما ستكونين ...

****

* رسالةٌ أخيرة *

●●●●●●●●●●●●●●●

في البدايةِ .. يجبُ عليَّ أن أشكركَ " أستاذ اسحاق " لأنّك عبرتَ حياتي، وحمداً لله كثيراً لأنّه جعلني التقي بكَ، وإلا ما كنتُ لأتخذَ عبرةً من الذي حصل معي ..

وأتساءلُ الآن .. كيف يُمكنُ للمرء أن يُحبَّ أحداً غير الله ؟

اللهُ الذي لا يموتُ ولا يرحل ..

اللهُ الذي يفوقُ الجمال كلّه ..

اللهُ الذي يغارُ على قلبِ عبدِه ..

اللهُ المحبوب الأوّل والأخير ..

" حبٌّ مُطلق " لهذا أجدُني عاجزةً عن وصفه ..

فالمُطلق لا يمكن أن يُوصف !



أثناءَ مسيرنا في دَوامَّةِ الحياة، ونحنُ نعبرُ من مرحلةٍ إلى أُخرى.. لابُدَّ من وقوعِنا في فخِّ الحُبِّ ' تحديداً في سنِّ المُراهقة ' لا ضَيرَ في ذلك لكن الضَّير أن نبقى عالقين في هذه الحفُرة، نأبى الخروجَ منها خوفاً من ألا نعثرُ على الحُبِّ مرّةً ثانية.. والحياةُ تكون قد مضتْ ونحنُ ما زلنا في أماكنِنا نُقاسي العذاب ونبكي على الأطلال، ولم نأخذ من هذا الحُبّ سوى الآهات والحسَرات..

رُغمَ أنَّ حبَّ المُراهقة حبّاً بريئاً بعيداً عن أيِّ مصلحةٍ شخصيّة، بيد أنّه في مُعظم الأحيان ينتهي بالفشل لأنّنا نضعُ عقولنا جانباً ونتركُ العواطف الجيّاشة تتحكّم في حياتِنا، لهذا غالباً ما يكون المصير مأساويّ خصوصاً إذا كان الحُبّ من طرفٍ واحد..

كانت بحاجةٍ إلى الحبّ لتملأ الفراغ الذي خلفاهُ والديها داخلها..

هي سرى الرزينة والواعية طالبةٌ في الثانويّة، ليست مثل قريناتها الفتيات، لم تتوّقع أن تُحبَّ يوماً.. ولِمَ لا تحبّ؟

كانت تغرقُ شيئاً فشيئاً والحياةُ تنفلتُ منها مثل حبّاتِ الرّمل وهي تندُبُ حبيباً رحلَ وتبكي على حبٍّ لا أملَ فيه.. إلى أن جاء جدّها وأنقذها من هذا الفخّ، وتعلّمتْ درساً لن تنساهُ ما حَيَتْ..

آية زينو